الوحدة الإسلاميّة

دراسة في الطرق العمليّة لتحقيقها

الاستاذ مصطفى قصير العاملي

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

قال تعالى في محكم كتابه:

﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكمْ فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها، كذلك يبيّن اللّه لكم آياته لعلّكم تهتدون، ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا من

بعد ما جاءتهم البيّنات وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ﴾.[1]

هـذه الآيـات الشريفة وآيـات أخـرى ليست قليلةً وردت في الذكر الحكيم تدعـو المسلمين إلى الالتفـاف حـول دين اللّـه سبحانـه وتعالى والاعتصام بحبله والتمسك بالكتاب الكريم وما جاء به الرسول الأعظم(ص)، كما تأمرهم بنبذ الفرقة والاختلاف والحفاظ على الوحدة والائتلاف.

﴿إنّ هٰذه أمّتكم أمّةً واحدةً وأنا ربّكم فاعبدون﴾.[2]

﴿وأطيعـوا اللّـه ورسـولـه ولاتنـازعـوا فتفشلـوا وتـذهب ريحكم واصبروا إنّ اللّه مع الصّابرين﴾.[3]

وعـلـى هـــذا النـهـج جـــرت السـنـة النـبـــويـة الشـــريـفـة وسُنّة الأئمة المعصومين(عليهم السلام).

فقد ورد عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أنه قال:

«مثل المـؤمنين في تـوادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهرِ والحمى».[4]

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».[5]

وقال: «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه».[6]

وهذا النصّ الاخير روي من طرق الشيعة الامامية أيضاً بهذا الشكل:

«من فـارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه» قيل يا رسول

---

(١) سورة آل عمران – ١٠٣–١٠٥.

(٢) سورة المؤمنون – ٥٢.

(٣) سورة الانفال – ٤٦.

(٤) صحيح مسلم – شرح النووي ١٦/١٤٠.

(٥) صحيح مسلم – شرح النووي ١٦/١٣٩.

(٦) كنز العمال للمتقي الهندي ١/٨٨٦ وفي معناه بألفاظ متقاربة ١/١٠٩٣–١٠٤٥.

اللّه، وما جماعة المسلمين؟ قال: «جماعة أهل الحق وإن قلّوا».[1]

من هـذه النصوص يتبين ان الاسلام دين الوحدة، دين الالفة والمودّة، دين الاجتماع والتكاتف، الاسلام دين أساسه كلمة التوحيد، والإخلاص، والناس كلهم عباد اللّه، ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾.[2]

العبادات الاسلامية والأحكام الشرعية تجسد هذا المنهج القويم وتكرس هذا الاتجاه.

فصلاة الجماعة مثلاً، عبادة يومية جعلت منها الشريعة المقدسة مظهراً من مظاهر الاتحاد والتآلف، فهم يجتمعون عدة مرات في اليوم الواحد في تظاهرة وحدويّة تنظم صفوفهم خلف إمام واحد، في اتجاه واحد، وقلوبهم نحو هدف واحد، هو طاعة اللّه وامتثال أمره وأداء فرضه.

وصلاة الجمعة، مظهر آخر من مظاهر الاتحاد والاجتماع، وهي دورة تعبوية اسلامية، سياسية وعبادية ضمن المنهج الاسلامي.

والأعياد الاسلامية العظيمة أيضاً تظاهرة اتحاد وتآلف بين المسلمين، فعن الامام الرضا عليه السلام وقد سئل عن علة جعل يوم الفطر عيداً، قال: «لأن يكون للمسلمين مجمع يجتمعون فيه ويبرزون إلى اللّه عز وجل فيحمدونه على ما منّ عليهم، فيكون يوم عيدٍ ويوم اجتماعٍ ويوم فطرٍ ويوم زكاةٍ ويوم رغبةٍ ويوم تضرع».[3]

ولعلّ حجّ بيت اللّه الحرام من أبرز المظاهر العبادية التي يتجلّى من خلالها الجانب الوحدوي، إذ أنّه أعظم مؤتمر يجتمع إليه المسلمون من جميع أقطار

---

(١) المجلسي: بحار الانوار ٢٧/٦٧.

(٢) سورة الحجرات - ١٣.

(٣) المجلسي: بحار الانوار ٩٠/٣٦٢.

الدنيا تلبية لنداء ربهم، وليؤدوا مناسكهم في عبادة جماعية تضم المسلمين على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأجناسهم وأحوالهم، في قلوب خاشعة خاضعة لم يوحّدها سوى الاسلام ولم يجمع بينها إلاّ التقوى.

هذه العبادات اليومية والموسمية التي شرّعها الدين الاسلامي وغيرها من العبادات والأحكام الاخرى تكشف عن اهتمام الشريعة المقدّسة ببناء مجتمع متّحد متعاون متكافل كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص. ولقد أكد الرسول صلى اللّه عليه وآله على أهمية الألفة والاتحاد منذ اللحظات الأولى لدخول المدينة المنورة، ونفّذ ذلك عملياً في حركة التآخي الفريدة فآخى بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار أنفسهم والمهاجرين أنفسهم، فقد كان المجتمع الاسلامي آنذاك في مستهل تشكيله وفي بداية نشوئه، وهو مقبل على امتحان عسير تفرضه طبيعة الدين الجديد والوضع السياسي المحيط بالمدينة المنورة، فهو أحوج ما يكون إلى الاتحاد ورصّ الصفوف وإزالة جميع عوامل الاختلاف والتفرق ليتمكن - على ضعف امكاناته - من الصمود في وجه الأعاصير التي توشك أن تعصف من مختلف الاتجاهات.

لقد قام صلّى اللّه عليه وآله بالمؤاخاة بين المسلمين ليجعل من الاسلام محور وحدتهم وأساس ارتباطهم وقطب حركتهم، وليجعل هذه القرابة الجديدة أقوى من قرابة الرحم والنسب وليجعل هذه الرابطة أوثق من رابطة القبيلة والوطن. لقد قضى بذلك صلى اللّه عليه وآله على العصبيات الجاهلية والنزعات المختلفة التي كانت تمزق المجتمع آنذاك وأحلّ محلّها حالة من الألفة والأخوة لم يذق ذلك المجتمع طعمه من قبل، فصنع من ذلك المجتمع الناشىء الصغير قوةً كبرى دافعت عن الاسلام واحتضنته بقوة وأفشلت كلّ المؤامرات التي استهدفت القضاء عليه، ثم حملت رايته المنتصرة لترفعها فوق ربوع الجزيرة العربية في مدّة يسيرة ثمّ

منهـا إلى أقطـار المعمـورة. إن من فضـول القـول الحديث عن إهتمـام الاسـلام بالاتحاد والالفة، ورفضه لعوامل التشتّت والنزاع.

عوامل التشتّت والافتراق:

قـد يتصـوّر البعض أن الحديث عن «الوحدة الاسلامية» في هذا العصر فيه نـوع من المثـالية وضـرب من الخيـال، نظـراً لمـا آل إليـه المسلمـون من التفـرّق والاختـلاف حتى أصبحـوا طـرائق قـدداً، الأمر الذي يجعل من لمّ الشمل واعادة اللحمة قضية عسيرة جداً.

وهـذا بـالحقيقة يـدفع الكثيرين إلى اليـأس والاستسـلام للواقع المرّ، وهو لايزيد الشّقّة إلاّ عمقاً والجرح إلا اتساعاً.

وفي المقابل هنـاك العديد من المخلصين الذين نذروا أنفسهم للتقريب بين المـذاهب الاسلامية وسعوا جهدهم لردم الهُوّة المصطنعة وتضميد الجراح. هؤلاء انطلقـوا في جهـودهم تلك على أسـاس من الاحسـاس بالمسـؤولية والشعـور بالتكليف الشرعي والحرص على وحدة الصف.

وكل سعي في هـذا المجـال إذا أريـد لـه النجـاح فلابدّ أن يقوم أولاً على دراسة وافية لعـوامل التفـرقة التي أدت بـالمسلمين إلى مـا هم عليـه، وبعـد ذلك التخطيط لازالة تلك العـوامل وتحصين المجتمع الاسـلامي ضدهـا، واستبـدالهـا بدواعي الاتحاد والالفة، ويمكن تقسيم تلك العوامل إلى قسمين:

القسم الأول: عوامل داخلية.

والقسم الثاني: عوامل خارجية.

أما العوامل الداخلية: فتتمثل في النوازع البشرية المختلفة من قبيل حب الـرئـاسة والتسلط وحب الـذات ولـو على حسـاب حقـوق الآخرين مما يدفع الى

الظلم والجـور، والاقبال على الدنيا بمايتجاوز الحدود الطبيعية، وهذه الأمور هي الأسـاس الـذي يتـولـد عنـه النزاع والضغائن والاحقاد، وربما جرّت إلى التعدي والطغيـان وسفك الدماء وسحق الحريات، وما إلى ذلك من التجاوزات التي تفتت المجتمع وتشتّت الأمة، كما أن الجهل يشكل عاملاً مهماً في بثّ الفرقة.

وهـذا النوع من العوامل لايخلو منه مجتمع بشري منذ بداية الخليفة وحتى الآن، ولعل من أهم أهـداف الدين الاسلامي بل كافة الأديان السماوية معالجة هذه النزعات البشرية والقضاء عليها وذلك من خلال البرامج التربوية والقوانين الشرعية.

ونظـام العبـادات في الاسـلام يهـدف إلى هذه النقطة عندما يربي الانسان على العبـودية للـه والطـاعة المطلقة ويحرره من قيود الشهوات الحيوانية والنوازع النفسانية.

كمـا أنّ الـدراسـات الأخـلاقية تتكفّل بمعالجة هذا الجانب، ووظيفة الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر في حقيقتهـا تشكل حـالة من التكـافل الاجتمـاعي للوقاية من تلك الأمراض، ونظام الحدود والتعزيرات أيضاً شرع لذلك الغرض.

وأما القسم الثاني: فهو عبارة عن العوامل الخارجية، ونقصد بها العوامل الـدخيلة على المجتمع الاسـلامي، والتي تستهـدف تجزئة هذا المجتمع، وتحطيم الاواصـر، وبثّ الفـرقة، وإثـارة النزاعـات والحروب لاضعاف المجتمع والسيطرة عليه، أو تشويه الاسلام والحيلولة دون انتشاره واتساع رقعته.

وقـد يستفيـد المخطّطـون لهـذه الأهـداف من القسم الأول من العـوامل ويعملـون على تنميتهـا واستغـلالهـا كـأدوات فعـالة لخـدمة مآربهم، ونحن إنما فصلناهـا لأنها في نفسها تشكل أحياناً عوامل مستقلة وان كانت أيضاً بالنسبة للقسم الثاني تشكل أرضية ملائمة لها وأدوات فعالة لخدمتها.

وبـالطبع فإنّ أعـداء الاسـلام الذين يتربصـون بنا الدوائر قد يستفيدون من

الكثيـر من نقـاط الضعف وينفّـذون إلى مخططاتهم من خلال العديد من الثغرات، ويستخـدمـون من الأدوات مايتيسر لهم، وقد تختلف هذه الأدوات من زمان إلى زمـان ومن مكان إلى آخر، وقد تصبغ الأدوات أحياناً بصبغة دينية، وأخرى بصبغة اقتصـادية، وربمـا استخدمت وسائل محليّة تخفى على الكثيرين ولايدرك حقيقتها إلاّ ذوو البصائر.

وأشـد الأدوات فتكـاً تلك التي تعمل بـوحي الأعـداء دون أن تدري، بل ربما تصورت نفسها تخدم الدين وتحرص على مصالح المسلمين.

دور الخلافات الفكرية والمذهبية:

هنـاك رؤية مفـادهـا أن الخلافات الفكرية والمذهبية على مستوى المعتقد وعلى مستـوى المنهج الفقهي والأصـولي تشكل عاملاً أساسياً من عوامل التشتّت والافتراق، وسداً منيعاً أمام كل مساعي الوحدة والتقارب بين المذاهب الاسلامية، ولأجل هـذا كـرّس أصحـاب هـذه الرؤية كل جهـودهم في مجـال معـالجة هذه الخـلافـات فراحـوا يبحثـون تـارة عن نقاط الالتقاء وأخرى عن الطرق التي ربما توصل إلى تقريب وجهات النظر في مسائل الخلاف. ولعلّ البعض قد حقّق نجاحاً ملمـوسـاً في هـذاالمضمـار إلاّ أنه بقي محصوراً في حدود دائرة ضيقة، ولم تحلّ المشكل جذرياً.

والحقيقة أنّ الاختلافات الفكرية لاتشكّل عاملاً من عوامل الافتراق بقدر ما هي أداة تستخدم في اثارة النزاعات، وقد استخدمت بالفعل وجُعلت أساساً لذلك.

إن الخلافـات الفكرية بمنزلة إختلاف اللغة واختلاف القومية وأمثال ذلك، ليست في واقعهـا من عـوامل الافتـراق والنزاع، ولكنها تستغل من قبل دعاة التفرقة والتجزئة وتشكل أرضية خصبة لنشاطهم.

الخلافات الفكرية قد تكون في نفسها دليل حياة ودليل قوة شرط أن تكون وليدة حالة طبيعية وأن تبقى في حدود الدائرة الفكرية، فتعدّد الآراء والنظريات من شأنه أن يثري الحركة الفكرية ويدفعها نحو التكامل والرشد. نعم هناك حالات من الخلاف الفكري تنشأ من التقليد الأعمى والتعصب البغيض، فتولد حالة القصور الفكري والجمود، وهذه بلاشك من الأمراض التي تتطلب العلاج.

في الساحة الاسلاميّة هناك نوعان من الخلاف الفكري:

النوع الأول: الخلاف بين المسلمين وغيرهم ممن لايعتنقون الدين الاسلامي من الملاحدة أو أهل الكتاب، ولاشك أن هذه الدائرة من الخلاف ليست محل كلامنا، ولكنها يمكن أن تؤخذ نموذجاً لدراسة المنهج الذي رسمه الاسلام لنا في كيفية التعامل مع الخلافات الفكرية بشكل عام، وهذا النوع بشكل خاص.

ففي دائرة الخلاف مع الملحدين، لايقطع الاسلام حبل الوصال معهم وانما هو يخاطب عقولهم باعتبار أنه القدر المشترك بين كل البشر، ويتابع منهج الحوار الفكري ما دام ذلك ممكنا. إذ أن هدف الاسلام الاساسي هو الوصول بالناس - كل الناس - إلى الحق والارتباط بالحق ليس أكثر.

﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.[1]

ولم ينكر الاسلام على الناس الشك في شيء إذا كان ذلك في طريق طلب الحقيقة وفي سبيل الوصول الى اليقين وانما انكر على المشككين الذين يرفضون الحقيقة دون حجة ولابيّنة، وانما يدفعهم إلى ذلك حالة العناد والتقليد الاعمى.

---

(١) سورة النحل - ١٢٥.

هذا هو المنهج القرآني في طرح الحقيقة والدعوة إليها فهو تارة يدعوهم للتدبر في الآيات الكونية وأخرى يطلب منهم التأمل بأنفسهم واعمال عقولهم وثالثة ينقض عليهم دعاواهم، وهكذا يرسم منهج الحوار مع الفكر ومخاطبة العقول.

ولا يلجأ إلى القوة والحسم إلاّ إذا مارسوا الطغيان ولجوا في العناد وتنكّروا للعقل والدليل، وهو مع ذلك يترك الباب مفتوحاً إذا ما استجابوا لنداء العقل وتخلّوا عن العناد ورضوا بالحق.

ومن النوع الأول أيضاً الخلاف مع أهل الكتاب، لكن المسألة هنا تختلف من حيث سعة دائرة المشتركات، فهم يؤمنون بالله ويصدقون بالمعاد وبوجود الرسالات السماوية ـ بالجملة ـ، فالحوار معهم كان مبنياً على أساس المسلّمات المشتركة.

﴿ولاتجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالّتي هي أحسن، إلاّ الّذين ظلموا منهم، وقولوا آمنّا بالّذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾.(١)

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سوآءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولانشرك به شيئاً ولايتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾.(٢)

وكذلك هنا لايخرج عن دائرة الحوار الفكري ومخاطبة العقول والاحتجاج بالمسلّمات عندهم واقامة الدليل والبرهان، إلاّ إذا أعرضوا عن هذا الاسلوب وأخذتهم العصبية ولجّوا في العناد، وهو مع ذلك يتدرج معهم في المقارعة والنزاع.

---

(١) سورة العنكبوت – ٤٦.

(٢) سورة آل عمران – ٦٤.

﴿فمن حآجّك فيه من بعد ما جآءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسآءنا ونسآءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين﴾.[1]

فاذا تجاوزوا ذلك - وقد تجاوزوه بالفعل، وأخذوا يتآمرون على الاسلام والمسلمين - كان لابدّ من الانتقال إلى ساحة الصراع العسكري واستعمال القوة.

النوع الثاني: الخلاف الفكري بين المسلمين أنفسهم.

هناك أصول مشتركة بين جميع المسلمين وهي الايمان باللّه وتوحيده والايمان بنبوة الرسول محمد صلى اللّه عليه وآله وبالقرآن الكريم كتاب اللّه المنزل وبالمعاد «يوم القيامة».

ولايشك أحد من المسلمين بأن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الرئيسيان لمعرفة أحكام الشريعة والمعارف الاسلامية، ومع ذلك فهناك الكثير من الخلافات ترجع كلها إلى كيفية فهم الكتاب والسنة احياناً، وإلى الطرق التي تثبت بها السنة النبوية الشريفة أحياناً أخرى.

فهي خلافات لاتمس الأصول الأساسية للشريعة وإنّما هي خلافات فكرية داخل إطار تلك الأصول تمليها طبيعة تعدّدالأنظار والآراء وتفاوت درجات الإدراك والفهم. وهو بالتالي أمر لابدّ منه في الجملة.

ومن المسلّم أن هناك بعض الظروف التي قد تلعب دوراً في تعميق هذه الخلافات وتطويرها، فتخلق الأرضية المناسبة لاستغلالها من قبل اعداء الاسلام، وهذه الظروف كما يلي:

١ - التأثر بالأجواء الاجتماعية الموروثة أو الدخيلة على المجتمع

---

(١) سورة آل عمران - ٦١.

الاسلامي والتي تطبع الفكر بطابع خاص وتجعله أسيراً لنهج فكري معين يقوده إلى الوقوع في انحرافات أو سلوك اتجاه قد لا يصيب الحقيقة.

٢ ـ التأثر بذوي النفوذ السياسي أو المكانة الاجتماعية الذي يجرّ عادة إلى اتباع منهجهم الفكري والابتعاد عن المناهج الاخرى، وبالتالي يتحوّل ذلك إلى مذهب خاص له مؤيدوه والمدافعون عنه.

٣ ـ الميول والمصالح السياسية والاقتصادية التي لها تأثيرها الكبير في تبني نوع خاص من الرؤية بما يتناسب مع تلك الميول. وقد تدفع أحياناً إلى تشجيع الوضّاعين والدسّاسين الذين يتاجرون بالدين لمآرب شخصية، فيقومون بوضع الحديث، أو اختلاق تفسير وتأويل خاص يخدم تلك المصالح، فيؤدي إلى اختلاط الحق على الناس، وينشأ عنه تعدد في النظرات والآراء وربما أدّى إلى ولادة فرقة أو مذهب.

٤ ـ من أسباب تعميق الخلاف، الحركات السرية للمنافقين واليهود الذين يهدفون إلى زعزعة أركان الدين الاسلامي وتشويه حقائقه، وذلك عبر أساليب كثيرة، كإثارة الشبهات والتشكيكات، وادخال بعض الأفكار الغريبة بطريق وآخر، وربما مارسوا عملية الوضع أيضاً بالاتجاه الذي يخدم أهواءهم. وهذا النمط من العوامل أوجد هذه الكميّة من الاسرائيليات التي ابتلي بها الحديث عندنا.

٥ ـ والأهم من كلّ هذه الأمور، الدور الذي يلعبه أعداء الاسلام، باستغلال هذه العوامل والاستفادة منها في اثارة النزاعات وبذر الشقاق، وبث العداوات. وقد شهد القرن الأخير تصعيداً في هذا النشاط وحقّق المستعمرون أغراضهم ومآربهم، عندما عمدوا إلى تقسيم العالم الاسلامي على أساس القوميات واختلاف اللغات والأقاليم، وأثيرت الحروب بين المسلمين لأغراض لاتخدم إلا الاستعمار، وقد هُزِمَ المسلمون يوم تناسوا المشتركات بينهم

والمصالح العامة، وتخلّوا عن أُسس وحدتهم وحبل اعتصامهم الذي يجمعهم ويؤلف بينهم وقدموا الانتساب إلى القومية وإلى الاقليم وإلى اللغة على الانتساب إلى الدين، على خلاف تعاليم الكتاب العزيز وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

ولقد استطاع المستعمرون أن يصنعوا من الوطن الاسلامي الكبير كيانات صغيرة متعدّدة فاقدة لمقوّمات القوة والحياة والاستمرار، وحرصوا أشد الحرص على إضعافها وخلق المعضلات السياسية والاقتصادية لها لكي تبقى أسيرة الحاجة وفريسة الصراعات، ليتسنّى لهم التحكّم بمصائر شعوبها والسيطرة على ثرواتها ومقدراتها.

العالم الاسلامي اليوم وبفعل أولئك المستعمرين بات يشكل بؤرة الفقر والفاقة وميدان الصراعات المعقّدة، بينما تدار عجلة الصناعة في الغرب بوقوده وزيته، وتقوم الماكنة الاقتصادية على خيراته وكنوزه المودعة فيه.

لم يعد أولئك المستعمرون اليوم بحاجة لارسال قواتهم والمخاطرة بجيوشهم لقمع حركات التحرّر، وتأديب من يفكر بالتمرد، أو يهدد مصالحهم الخاصة، فهم يمسكون بقياد الجيوش في أكثر البلاد الاسلامية، ويتحكمون بالدفّة السياسية فيها، فعملاؤهم يكفونهم المؤونة ويؤدون المطلوب على أفضل وجه.

ولسنا بحاجة إلى شواهد لاثبات ذلك وفي كل يوم لنا شاهد، وكلّ لحظة لنا دليل.

عوامل أم أدوات:

إنّ تعدّد الآراء واختلاف وجهات النظر بين العلماء والمفكّرين لاتشكل حالة مرضية وانّما هي دليل حياة، دليل قوة حركة العقل والفكر، والمؤسف أن

الكثير من الناس يعتقد أن اختلاف وجهات النظر هو السبب الكامن وراء الفُرقة والتشتت فتراهم يشعرون بالجزع والأسى إذا اختلف الفقهاء في الفتوى مثلاً، أو تباينت الآراء في مسألة معينة، وقد غفلوا عن حقيقة مفادها أن الغاء مثل هذه الاختلافات لايتمّ إلاّ إذا عُطّل الفكر عند البشر ومُنِعَ العقل من ممارسة نشاطه.

نعم.. إنّ اختلاف وجهات النظر ثغرة قد يستغلها الأعداء وزارعوا الفتن، فيتّخذون منها ذريعة لبث الفُرقة والنزاع والخصومة. ولأجل هذا يفترض بالمسلمين أن ينتبهوا الى هذه الحقيقة ويتعاملوا مع الاختلافات الفكرية على أنها ظاهرة صحية، وأنها حالة طبيعية، ومن ثم يحصروها في إطار البحث العلمي، ولايسمحوا لها بالتعدي والتجاوز لتصبح أدوات فتك وأسلحة دمار.

ولعلّ أوضح دليل على ما نقول، ما نجده من اختلاف الآراء بين علماء الفريق الواحد الذي قد يبلغ مقداراً لايقل عن اختلاف الآراء بين الفرق المتعدّدة، ومع ذلك لايؤدّي في الحالة الأولى إلى الخصومة والنزاع بينما في الحالة الثانية يشكل مادة لذلك. والسبب يكمن في طبيعة التعاطي مع تلك الاختلافات واستغلالها تارة في النزاع والخصومة وعدم استغلالها أخرى.

فاختلاف الآراء ليس عاملاً من عوامل الفُرقة والتشتّت بمقدار ما هو أداة تستغل فيها. مثله مثل السلاح الذي يدّخر لحالات النزاع والحرب، فقرار الحرب لايتولد عن وجود السلاح وانّما يتّخذ لتوفر عوامل أخرى تؤدي إلى اشعال ناره، فإذا اتّخِذَ قرار الحرب لجأ كلّ فريق إلى أسلحته ليفتك بالآخر.

وما نشاهده اليوم عندما تشهر المسائل الخلافية في النزاعات المذهبية فهو من هذا القبيل.

فلابد إذن أن نميّز بين عوامل الافتراق والتشتت وبين الأدوات التي تستخدم فيه. وبالتالي يفترض أن ينطلق العلاج على اساس القضاء على العوامل

وصيانة الأدوات عن الاعداء وعدم السماح لهم باستغلالها.

خطوات عملية في طريق الوحدة:

من خلال الاستعراض المتقدّم يمكن أن نخلص إلى وضع برنامج توحيدي يتمثّل بخطوات:

أولاً: ليس من الضروري أبداً تركيز الجهود التقريبية على أساس تقريب وجهات النظر، وتعليق كلّ الآمال على النجاح في هذا الجانب، وان كان تقريب وجهات النظر والتقليل من الخلافات الفكرية في نفسه مطلوباً.

ثانياً: الاسلام واحد والحقيقة واحدة، والاختلافات ناتجة من اختلاف النظر وطريقة الفهم، فهي وليدة قصور الفكر البشري، وأثر الحوار الفكري في الأجواء الطبيعية كبير جداً في تكامل ذلك الفكر واقترابه من الحقيقة، فالمفترض أن يحرص الجميع على توفير الأجواء الملائمة والظروف الصحيّة للحوارات الفكرية وتشجيعها ورعايتها.

ثالثاً: الخطوات العملية على طريق وحدة المسلمين لاتنتظر نتائج الحوارات الفكرية ولاتتوقّف عليها، بل تنطلق على قاعدة المشتركات التي وحّدنا الاسلام على أساسها، وهي شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

فمن قالها حُقِنَ دمه وعُصِمَ ماله، وصار له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وهذه أهم قاعدة توحيدية.

رابعاً: قراءة كلّ فريق لغيره من الفرقاء لابدّ أن تكون بعين الباحث عن الحقيقة والواقع، لا بعين الباحث عن العيوب والثغرات، وتقصي العثرات، فان الكثير من الأقلام التي تصدّت لدراسة الفرق والمذاهب، لم تتجرّد عن عصبياتها

وعـدائهـا المسبق للفـرق الأخـرى، فسـاهمت تلك الكتابـات بتعميق الجراحـات وتشويه الصور.

في هـذا المجـال أحب أن أشير إلى أن القراءة الصحيحة للمذاهب والفرق هي التي تعتمـد على مـا كتبـه أصحـاب تلك المذاهب وعلماء تلك الفرق، يجب الرجوع إلى أهل الآراء لمعرفة آرائهم، فهم أقدر على عرضها وأدق في تصويرها، وتصوير أدلّتها.

أمـا إذا رجع الباحث في دراسته لفرقةٍ من الفرق ولمذهب من المذاهب إلى مخـالفيهم فلن يحصل على نتـائج دقيقة ولن يـرى تمـام الحقيقة ولن يقف على تفصيل معتقداتهم وآرائهم. والمؤسف أن هذا يحدث كثيراً بيننا والبعض منا يبني نظراته تجاه الآخرين على ذلك.

قد تسمع بحادثة بسيطة وشجار مختصر بين اثنين من أصحابك، وتكوّن في ذهنك صـورة من خـلال ما سمعت، لكنك ستفاجأ إذا استمعت إلى ذوي العلاقة لمقـدار الاختـلاف بين الـواقع والنقل، هـذا مع اتحاد الواسطة فكيف إذا تعددت، وكيف إذا رافق ذلك سوء ظن وعصبية وما شابه.

فنحن ندعـوا البـاحثين إلى التجرّد، والتحلّي بالإنصاف، وأخذ معلوماتهم من المنابع الصافية والمصادر المباشرة.

وهنـاك نقـاط أخرى تجدر الاشارة إليها، تتعلق بكيفية دراسة فكر الآخرين والتعرف على آرائهم:

الأولى: التفريق بين الـرواية والرأي، فإن وجود رواية في كتب قوم لايدلّ أبداً على أنهم يفتون بمضمونها أو يعتقدون صحّتها ويعملون بها، فكثيراً ما نراهم يثبتـون النصوص في مصادرهم ويتركون أمر دراستها إلى مجال آخر أو إلى أهل الفن، فربمـا ناقشـوا سنـدهـا أو متنهـا، وربمـا كانت معـارضة بغيرها، وربما كانت

تخـالف الكتـاب أو السُنّة القطعية ممـا يقتضي طرحهـا. والنتيجة أنـه لاتـلازم بين الرواية والاعتقاد.

الثانية: رأي أحـد العلمـاء لايمثل أبداً رأي الطائفة أو المذهب، وان كان منتسباً إليهما. فكثيراً ما ينفرد شخص برأي خاص في مسألة من المسائل أو فرع من الفـروع بينمـا يكـون رأي الطائفة على خلافه، فلا يصحّ تحميل الطائفة ذلك الرأي. وهـذا الخطـأ قـد وقع فيه بعض الباحثين، وجّهوا انتقاداتهم للطائفة بناء على ذلك القول الشاذ.

ولمعـرفة رأي طـائفة معيّنة في مسـألة من المسـائل لابـدّ من مـلاحظة مـا يجمعـون عليـه أو مـا يكون مشهوراً بينهم يذهب إليه أغلب علمائهم ومفكريهم، ولاينظر إلى الشاذ.

الثالثة: يفترض بالباحث أن يعتمد الأسلوب العلمي بالبحث، وأن يتجنّب المغـالطـات، والـدخـول في النزاعات المبنائية، ونقصد بها المسائل الخلافية التي يـرجع الخـلاف فيهـا إلى الاختلاف على المبنى العلمي المعتمد، فمثلاً قد يكون هنـاك قاعـدة أصـولية مقبـولة عنـد شخص وغير مقبولة عند آخر، أو رواية تصحّ بحسب قواعد هذا الفريق ولاتصحّ على قواعد ذاك الفريق، فلابدّ من حصر البحث في القاعـدة المختلف فيها وسوق الأدلة لاثبات أو نفي ذلك المبنى، دون الدخول في الفروع المرتّبة التي ستكون بطبعها تابعة للمباني.

وأخيـراً فانـه ليس من الضـروري أبـداً نقل الخـلافـات إلى دائـرة أوسع والالتـزام بمـا لايلـزم، وترتيب آثـار العداء تجاه من نختلف معهم إذا لم نوفق من خلال الحوار للوصول إلى وفاقٍ في الرأي واتفاق في النظر.

وبعبـارة أخـرى لابدّ من حصر الخلافات الفكرية في دائرتها وعدم السماح لأعـدائنـا باستغلالهـا والاستفادة منها، وعندئذ لن يكون هناك أيّ محذور من فتح

الحـوارات وتشكيل النـدوات لتـدارس نقاط الخلاف، ولابدّ من تناسي الخلافات المذهبية وكتمانها فيما لو ظهر من أعداء الاسلام أيّ تحرّك للّعب على وترها.

ومن الخطـوات العملية في مجـال التقريب ولمّ الشمل إزالة الحاجز النفسي المصطنع الـذي وضعه أعداؤنا بين أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، وهذا الأمر له أهمية كبـرى للوصـول إلى الصورة الحقيقية والرؤية الصحيحة لبعضنا البعض. فان البُعـد والجَفـاء يتـرك أسوء الأثر على النفوس ويزرع الضغائن والاحقاد، وبالتالى يمهد الطريق لمثيري الفتن والنزاعات.

فنحن ندعـو المجـاميع العلمية والحـوزات والمعـاهـد عنـد المـذاهب الاسـلامية كافة أن تنفتح على بعضها، وتضع حدّاً لهذا الانغلاق على النفس، نحن ندعـو علماء المذاهب والفرق الاسلامية لزيارة حوزاتنا العلمية ومعاهدنا وحضور النـدوات والمباحثات العلمية، لانقصد الزيارات الرسمية والدبلوماسية، وانما نعني الزيـارات الاستطـلاعية العلمية المفتوحة، وبالمقابل نأمل أن يقوم علماء ومفكروا الشيعة بزيارات مماثلة باتجاه المذاهب الأخرى.

الجامعـات والمؤسسات العلمية بامكانها أيضاً أن تؤدي دوراً فعالاً في هذا المجـال وذلك بافتتاح أقسام خاصة لدراسة المذاهب الاسلامية شرط أن يعهد إلى أساتذة كفوئين من كل مذهب اسلامي لتدريس مذهبهم.

لمـاذا يضع كلّ فريق سـدّاً فولاذيـاً أمـام النتـاجـات الفكرية للفريق الآخر، ولاتـدرس إلاّ بخلفية البحث عن العيـوب والثغـرات، إذا كنّـا نريـد الحفاظ على نقاوة الفكر وصفائه فلابدّ من إطلاق عنانه وإعطائه حريته.

لايفوتنـا أن نسجل أسفنـا لمـا يعانيـه الكتـاب الشيعي في العديد من البلاد الاســلامية من حصـار وحظـر. فإن البعض يضع الكتـاب الشيعي في لائحة الكتب الممنوعة، ويتعامل معها أسوأ ممّا يتعامل مع كتب الكفر والضلال.

لماذا يمنع الملايين من المسلمين المثقّفين من الإطلاع على واقع المذاهب الأخرى بينما يباح لهم قراءة المطبوعات المشحونة بالكفر والانحراف والفساد الأخلاقي.

لماذا يسمح للاعلام الغربي المعادي للاسلام بالدخول إلى كلّ بيت ومكتب ومدرسة من بلادنا الاسلامية، ولايسمح للاعلام الاسلامي أن يأخذ مكانه. إنه الواقع الأليم الذي نعيشه في العديد من البلاد.

مطلق الإتحاد أو الإتحاد في دائرة الحق:

لاشك أن الاتحاد عامل قوة، وكلّ مسلم في أعماقه رغبة شديدة وشوق كبير لرؤية الاسلام يشمخ علواً، وترفّ رايته على كلّ رابية، كلّ مسلم يحب أن يرى العالم الاسلامي قوياً عزيزاً منيعاً، والاسلام عندما يدعو للالتزام بالجماعة واصلاح ذات البين وينهى عن الفرقة والتشتّت يريد بذلك التمحور حول الدين وحول الحق، وإلاّ فانّ الاتفاق على كلمة الفكر والالتزام بالجماعة وان كانت على باطل مما لايمكن أن يدعو إليه الدين ولايحبه الله.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«جماعة أمتي أهل الحق وان قلّوا».(١)

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«إن القليل من المؤمنين كثير».(٢)

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«الجماعة أهل الحق وان كانوا قليلاً والفُرقة أهل الباطل وان كانوا كثيراً».(٣)

---

(١) المجلسي: بحار الانوار ٢/٢٦٥ و ٢٧/٦٧.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٢/٢٦٦.
(٣) المجلسي: بحار الأنوار ٢/٢٦٦.

فالكثـرة بمـا هي كثرة ليست غاية في نظر الاسلام وانما المطلوب هو التزام سبيل اللـه والاجتماع على هذا السبيل والاتفاق عليه، لامجرد الاتفاق والاجتماع كيفما كان وكيفما اتفق، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم مراد الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسلم من الجمـاعة في الأحـاديث المـروية عنـه في النهي عن مفـارقة الجمـاعة، فأنـه ليس المقصـود مطلق الجمـاعة ولـو كانـوا جماعة الباطل وأعداء الدين، ولـذا كـان التعبير الوارد في بعض النصوص «جماعة المسلمين». فالحقّ هو الملاك، والاسلام هو الغاية، والاجتماع عليه يكسبه قوة ومنعة ويحقق أهدافه.

الوحدة والتبليغ للمذهب:

كلّ فـردٍ منـا يحمل قناعـات ويتبنى أراء، ويحب أن يعرض هذه القناعات والآراء على الآخـرين إمـا باعتبـار أنهـا من نتـاجـات فكـره أو لأنهـا هي الحقّ والصـواب بنظـره، وإذا توسعنـا قليـلاً نجـد أن أصحاب المدارس الفكرية كذلك يحبـون عـرض مـدرستهم ودعمهـا بالأدلة والبراهين والدفاع عنها، وكذلك الأمر على مستـوى المـذاهب والفـرق الكبيـرة، فقـد يتوهّم البعض أن التبليغ والدعوة لمذهب معين ينافي الوحدة والاجتماع ويؤدي إلى الفرقة والخلاف.

والحقيقة أن التبليغ والـدعـوة بحدّ ذاتهما لايؤدّيان إلى ذلك ما لم يرافقهما حالة من التعصب، وحالة من الجمود الفكري.

وقـد قيل إن: «الصراع الفكري دليل صحة ودليل يقظة ما لم يؤدّ إلى انشقاق في صفوف الأمّة ومواجهة عدائية»،[1] وهذا مما لايحصل عادة في الأطر الصحيحة لعـرض الأفكـار والآراء وفي أجـواء الحـوار الفكري الخالص عن شوائب الحقد

(١) في سبيل الوحدة الاسلامية – ٥٩.

والتعصب.

وهل يمكن لأمّة أن تبلغ رشدها الفكري إذا أوصدت باب حرية الفكر وسدّت منافذ الحوار وجمّدت الطاقات المخزونة في العقول البشرية؟

والفرق كبير بين الاقتناع بالفكرة وتبني الرأي وبين التعصب لهما، بين قبول العقيدة لأن الدليل ساقه إليها وبين التقليد الأعمى، بين الحوار من أجل الوصول إلى الصواب وبين الجدال بهدف إفحام الآخرين وتبكيتهم واسقاطهم.

والنتيجة أنّنا لانرى أنّ من الشروط العملية للوحدة منع أرباب الفرق والمذاهب من الدعوة والتبليغ، بل ندعو لنبذ العصبية، والتجرّد عن النظرة العدائية تجاه بعضنا البعض، ثم ليعرض كلّ انسانٍ فكره وعقيدته، وليكن ميزان العقل هو الأساس في قبول ذلك أو ردّه.

لقد اتبع هذا الاسلوب أكبر العلماء من مختلف المذاهب، لم يَحُلْ الاختلاف الفكري دون اجتماعهم وتحاورهم وأخذ بعضهم عن بعض. وإذا كان الاجتهاد قد قاد بعضهم إلى رأي، فانه قد ساق الآخرين إلى رأي آخر، وما دام الدليل هو المحكّم فالأمر في اطاره الصحيح وطريقه السليم، نعم عندما يحاول أحدٌ أن يفرض رأيه فرضاً، ويقبل الدليل والبرهان إذا كان يؤيد فكرته ويرفضهما إذا لم يكونا كذلك فعندئذٍ يمكن أن يقال إن هذا النحو من الصراع ـ الذي قد يسمى فكرياً وليس كذلك ـ أول الطريق نحو التشتّت والفُرقة. وليس الاعلان بالرأي والدعوة إليه هو السبب في ذلك، وانّما المشكلة مشكلة أولئك الذين لايتحمّلون الحوار الفكري القائم على القواعد الا ستدلالية، ويتأذوّن ممّن لايقبل آراءهم أو ينقدها.

وكلمة أخيرة:

إن زرع وتنمية روح الأخوة وتقبّل الحقيقة وغسل القلوب مرحلة متقدمة رتبة على الحوارات الفكرية، بل هي أرضية لابدّ منها لانجاحها وتحقيق مآربها، وإلاّ كانت الحوارات ساحة لاشعال نار النزاعات وتغذية الصراعات.

إنّ دعاة التفرقة مرجفون - حسب تعبير الشيخ شلتوت - يتربصون بنا الدوائر ولايعجبهم أن يروا المسلمين يداً واحدة على أعدائهم، وصفاً واحداً في مواجهتهم.

إذا كان «اصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم»،[1] فلأن فيه حفظ الاسلام وقوته وتماسك أهله، ولأجله قال صلى الله عليه وآله وسلم في تتمة الحديث:

«وإنّ المبيرة الحالقة للدين فساد ذات البين، ولاقوة إلاّ بالله العلي العظيم».[2]

---

(١) المتقي الهندي: كنز العمال ٢/٥٤٨٧، والمجلسي: بحار الأنوار ٧٦/٤٣ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) الكليني: الكافي ٧/٥١.